

النظرية اللغوية العربية من منظور عبد الملك مرتاض.

دكتور نورالدين دريم
جامعة حسية بن بوعلي الشلف الجزائر

الملخص باللغة العربية :

يعدّ الدكتور عبد الملك مرتاض علما من أعلام النقد في الجزائر ، فإن علا كعبه في هذا الفن، فهذا لا ينفي إسهاماته في اللغة، لقد حاول عبد الملك مرتاض أن يؤسس لنظرية لغوية عربية، وذلك في كتابه " نظرية اللغة العربية"، انطلاقا من قراءاته المعمّقة للتراث العربيّ الأصيل، فركّز على دراسة ثلاثة مستويات : المستوى الصوتي و المستوى الصرّي و المستوى النحوي، وكذا تمثّل الدلالة في هذه المستويات، لقد بنى نظريته على نقد بعض ما جاء به أعلام التراث العربيّ - مع إقراره لهم ببذل الجهد و العنت في الاجتهاد وفضل السبق - ، هذا تصور الدكتور للعربية، ولا يجد في نفسه حرجا أن يخالف غيره، ولو كان من أكابر أئمة العربية .

سأحاول في هذه المداخلة أن أبين أهم مقوّمات النظرية اللغوية العربية من منظور عبد الملك مرتاض، انطلاقا من المستويات اللغوية التي تناولها بالدراسة والتحليل، كذا رؤيته الموسعة في التأسيس لهذه النظرية التي حاول فيها ربط علوم العربية ببعضها ببعض .

الملخص باللغة الفرنسية :

la théorie linguistique arabe selon Abdelmalek Mourtadh

Abdelmalek Mourtadh est l'une des figures de « la critique » en Algérie, mais aussi a-t-il des contributions dans le domaine des études linguistiques. En effet, il a essayé, dans son ouvrage « théorie de la langue arabe », de fonder une théorie linguistique arabe à partir de ses lectures des anciens textes arabes. Il érigé sa théorie sur la critique de certaines figures de la tradition arabe. Tout en appréciant leurs grands efforts et en reconnaissant le mérite de leur primauté, il n'hésite pas à se positionner contre eux.

Cette communication a pour dessein de montrer les principales constituantes de la théorie linguistique arabe selon Abdelmalek Mourtadh à partir des niveaux linguistiques qu'il a étudiés et analysés.

Les mots clés : la théorie linguistique arabe , la critique, Abdelmalek Mourtadh , les principales constituantes de la théorie.

الموسعة في التأسيس لهذه النظرية التي حاول فيها ربط علوم العربية بعضها ببعض.

1- التراث ونظرة المحدثين إليه:

يمثل التراث الرابط الروحي بين حاضر هذه الأمة وماضيها، لكنّه لم يسلم من النقد - المؤسس أو غير المؤسس - ، الذي طال منهجه، ومادته، فدرس " المنهج اللغوي عند العرب على أساس شامل لم يتم حتى الآن" ² ؛ لذلك لا بدّ من " التأمّني بل التردد في نقد التفكير اللغوي العربي، ووصمه بأنّه لا يستند إلى نظرية واضحة في دراسة اللغة، وإن دراسة اللغة عند العرب كانت أمشاجا مختلطة من مناهج متعددة، وأنها تفتقر إلى وحدة المنهج، وغير ذلك من الاتهامات التي ردها دعاة الوصفية من العرب إبان افتتانهم بالنظرية اللغوية الأوروبية، ومعنى هذا أننا في حاجة إلى نظرة موضوعية للتراث العربي، أو بعبارة أخرى دراسة التراث اللغوي العربي في ذاته ومن أجل ذاته، لكي نكشف عن هذه النظرية اللغوية التي استند إليها القدماء في بحثهم للغة" ³.

وعليه فإنّ النقد "الذي يتوجه إلى المنهج العربي القديم ينبغي أن يتمهل قليلا حتى يتم درس المنهج درساً شاملاً" ⁴ . لأن

² فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، ص 11.

³ العربية وعلم اللغة البنوي، حلمي خليل، ص 196.

⁴ فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، ص 143.

لا يذكر في الجزائر النقد إلاّ ويتجلّى معه علم من أعلامه، إنّه الدكتور عبد الملك مرتاض، فإن علا كعبه في هذا الفن، فهذا لا ينفي إسهاماته في اللغة، لقد حاول عبد الملك مرتاض أن يؤسس لنظرية لغوية عربيّة، وذلك في كتابه " نظرية اللغة العربيّة "، انطلاقاً من قراءاته المعمّقة للتراث العربيّ الأصيل، فركّز على دراسة ثلاثة مستويات : المستوى الصوتي والمستوى الصرفي والمستوى النحوي، وكذا تمثّل الدلالة في هذه المستويات، لقد بنى نظريته على نقد بعض ما جاء به أعلام التراث العربيّ - مع إقراره لهم ببذل الجهد والعنت في الاجتهاد وفضل السبق - ، فهو يرى أنّ " اللغة العربية أكبر لغات الكون إطلاقاً، وأوسعها دلالة في الدلالات، وأدقّها معاني في المعاني، وأكثرها أبنية في المباني، وأغناها تخاريج لدى المعالجة، وأوسعها تفاريق لدى التفهم" ¹، هذا تصور الدكتور للعربيّة، ولا يجد في نفسه حرجاً أن يخالف غيره، ولو كان من أكابر أئمة العربيّة .

سأحاول في هذه المداخلة أن أبيّن أهم مقوّمات النظرية اللغوية العربية من منظور عبد الملك مرتاض، انطلاقاً من المستويات اللغوية التي تناولها بالدراسة والتحليل في كتابه "نظرية اللغة العربية"، وكذا رؤيته

¹ نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيّتها، عبد الملك مرتاض، ص 6.

النظرية العربية لم تلق حظها من المكاشفة والتبيان، وأرى أنّ " أية محاولة لنقد الفكر اللغوي العربي دون اكتشاف نظريته الأصلية هي محاولة محفوفة بالمخاطر، بل هي من قبيل المغامرة التي تنتظر حكم التاريخ"⁵.

2- مفهوم النظرية :

تتنازع مصطلح النظرية حقول معرفية كثيرة ومتنوعة سواء كانت علمية أو فكرية أو فلسفية أو غيرها، فالنظرية في التراث اللغوي العربي، مفهومها النظر الذي يعني " طلب معنى بالقلب من جهة الذكر، كما يطلب إدراك المحسوس بالعين " ⁶، أمّا النظرية عند الفلاسفة فهي عبارة عن " تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ"⁷، وهي " عملية تصورات مؤلفة تأليفا عقليا يهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات وهي بمثابة فرض علمي يمثل الحالة الراهنة للعلم، ويشير إلى النتيجة التي تنتهي عندها جهود العلماء أجمعين في حقبة معينة من الزمن، ويربط عدة قوانين بعضها ببعض، ويرد إلى مبدأ واحد يمكن أن يستتبط منه حتما أحكاما وقواعد " ⁸.

أمّا إذا ربطنا النظرية بتصوراتنا لظاهرة معينة فإنّ " النظرية هي الفرضية المحققة بعدما جرى إخضاعها لرقابة المحكمة العقلية والفقهاء الاختياري ... لكن على أية نظرية لكل تظل صالحة، أن تتطور دائما مع تقدم العلوم، وأن تبقى خاضعة باستمرار للتحقق ولنقد الوقائع الجديدة التي تظهر، وإذا اعتبرت نظرية ما على أنها كاملة، وجرى التوقف عن التحقق فيها بالاختيار العلمي أصبحت مذهبا"⁹؛ أي بمعنى : هي مرجعية تتحكم في تصوراتنا لظاهرة معينة .

وهي في سياق دراسة الظواهر اللغوية أو العلمية جملة من " الفروض الذهنية أو العقلية التي يقدمها العلماء في استنباطهم للأنظمة التي يدرسونها " ¹⁰.

و إذا تمّ تحقيق ربط ما بين المنهج والنظرية في سياق ما، فإنّ النظرية في هذا المستوى هي " التي تشد الوقائع والمفاهيم والفروض والقوانين في سياق ملتئم واحد بل إن وجودها متضمن بصورة أو بأخرى في كلّ منها، وبها يقدر دور كل من الوقائع والمفاهيم والقوانين في تحقيق غايات المنهج العلمي، كما أن الحكم على

⁵ العربية وعلم اللغة البنوي، حلمي خليل، ص 178
⁶ التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص 701.

⁷ المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج2، ص 477.
⁸ معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، محمد فتحي عبد الله، ص 327.

⁹ موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، ج3، ص 1455.
¹⁰ النظرية اللغوية في التراث العربي، محمد عبد العزيز الدايم، ص 17.

كفاءة المنهج إنما هو حكم على كفاءة الطريقة التي أسلمت لإلى النظرية"¹¹.

وعليه فإنَّ المركب الوصفي "النظرية اللغوية العربية" على سهولة استخدامه، فهو عصي على التحديد والبيان لأنه يفترض وجود مقومات لها (نعني بها الشروط والموضوع والمجال والبناء العام للإجراءات).

3- موضوع النظرية:

وفيه يحدد موضوع كل علم من العلوم بشكل منهجي، حتى يتبين للباحث إخراج ما ليس فيه وحصر ما هو له، ويتم ذلك بوسيلتين اثنتين :

أولهما : الممارسة الضمنية: وفيها يحصر موضوع كل علم، مع القدرة على استنباط مكونات الموضوع .

ثانيهما :الممارسة المنهجية :وهي امتداد للأولى، ليجعل فيها الموضوع المحدد سلفاً، بمثابة مقدمات نظرية يستعين بها الباحث على الخوض في غمار الموضوع المحدد وتطبيقاته.

وعليه إذن لابد من ضبط قواعد تحديد الموضوع ومفاهيمه فيعيد النظر في الموضوع دون إدخال ما ليس فيه فيحل به، أو يتجاوز به الحدود .

وقد تلمسنا هذه القضية عند علماء الأصول متخذين منها منطلقات أسسوا عليها تصوراتهم، يقول الأمدي (ت 621هـ): "حق على كل من حاول تحصيل علم من العلوم أن يتصور معناه أولاً بالحد أو الرسم؛ ليكون على بصيرة فيما يطلبه، وأن يعرف موضوعه، وما هي الغاية المقصودة من تحصيله حتى لا يكون سعيه عبثاً، وما عنه البحث فيه من الأحوال التي هي مسأله لتصور طلبها، وما منه استمداده لصحة إسناده عند روم تحقيقه إليه، وأن يتصور مبادئه التي لا بد من سبق معرفتها فيه لإمكان البناء عليها"¹².

مجال النظرية:

ويقصد به تحديد اللغة التي تعد مادة الوصف والتفصيل، ومن ثمّ استخلاص المدونة التي تمثلها، والباحث في هذه الحالة أمام أمور منها :ماهية اللغة العربية هل هي الفصيحة أم يضاف إليها اللهجات الأخرى، ثم أين يتعين الاستشهاد فهذا الأمر يتطلب بنية زمانية وأخرى مكانية، ثم يعقب ذلك كله المدونة التي تتضمن كلام العرب (المتداول منه أو الفني) .

4- إجراءات النظرية اللغوية:

إن كان للنظرية موضوعاً ومجالاً، فلتتفذيها لابد من وجود جملة من الإجراءات التي يعتمدها الدارس لحقل من

¹² الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي، ج1، ص 21.

¹¹ فلسفة العلم، صلاح قنصوة، ص 95.

حقول المعرفة، ولما كان موضوع النظرية اللغة- في هذا السياق - فإن هذه الإجراءات تمس بشكل مباشر اللغة، وهي :

الجمع والوصف والتحليل والمقارنة والتصنيف والتعميم والشرح والتفسير¹³.

- الجمع : ويقصد به الوقوف على المادة المدروسة بشكل دقيق وكامل قبل الشروع في معالجتها .

- الوصف : ونعني به جمع بيانات اللغة وتنظيمها ومن ثم وصف خصائص وحداتها سواء على المستوى (الإفرادي أو المستوى التركيبي).

- التحليل : ويقصد به الطرائق المتبعة لتفكيك البنيات إما على المستوى الصريفي (بنية الكلمة) أو المستوى النحوي (تحليل الجملة إلى وحدات أصغر).

- المقارنة: تمثل سلوكا إنسانيا يتجاوز السؤال عن الموضوع إلى السؤال عن المشابهة والمخالفة أثناء دراسة اللغة .

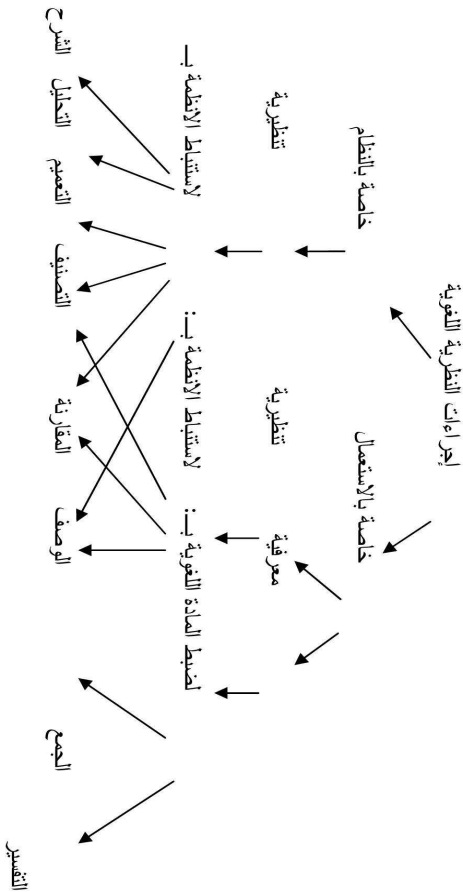
- التصنيف : وهو نتاج الوصف والتحليل والمقارنة، ولا بد من مراعاته ليتضح النظام العام الذي يجمع مفردات الظاهرة اللغوية ولا بد أيضا من أن يكون قائما على بيان أوجه الشبه والاختلاف .

- التعميم : ينبغي لدارس اللغة أن يقدم تعميمات للمادة المدروسة تشترك فيها

الأنماط الأساسية، وتتمثل هذه التعميمات في القواعد التي تضبط الجزئيات وما تفرد من اللغة .

- الشرح : وبه توصف الصور التي تتحقق فيها اللغة، مع تخصيص المدى الذي تتسم فيه بالفطرية والالتزام بشرح طرق الكلام وفهمه .

- التفسير: وهو آلية تبحث عن أسباب أعمق للكشف عن جوانب الظاهرة اللغوية. ويمكن أن نبين دور الإجراءات السابقة في المخطط الآتي :¹⁴



¹⁴ النظرية اللغوية في التراث العربي، ص 41.

¹³ النظرية اللغوية في التراث العربي، ص 34 وما بعدها .

5- شروط النظرية اللغوية :

لكي تتأسس نظرية ما في حقل معرفي ما ؛ لابد أن تتوفر فيها جملة من الشروط وهي : " العموم والتجريد والاكتمال والبساطة ، والاقتصاد والاتساق العام والكفائية في وصف اللغات وصلاحياتها للتطبيق على أكبر قطاع من اللغات " 15 .

وكل شرط من هذه الشروط يتفاوت من لغة إلى أخرى باعتبار اختلاف اللغات في بعض الخصائص واشتراكها في الأخرى وإن "أردنا مراجعة الشروط التي تفي النظرية اللغوية العربية احتجاجنا إلى الوقوف على المبادئ العامة التي وضعتها " 16 .

وبمراجعة هذه المبادئ يظهر أن اللغويين العرب قد حققوا الشروط السالفة الذكر لبناء نظرية علمية ، وهي :

التجريد والعموم: ويتجلى هذين الشرطين في القياس الذي اتخذه العرب وسيلة للخروج من الشواهد المفردة (الآحاد) إلى القاعدة العامة وتقريرها، وعلى هذا المستوى يتم تجريد المادة المسموعة واستنباط قواعدها، يقول ابن جني متحدثاً عن القياس " ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول، وإنما سمعت البعض فقيست عليه غيره،

¹⁵ النظرية اللغوية في التراث العربي، ص 22.

¹⁶ نفسه، ص 23.

فإذا سمعت قام زيد أجزت ظرف، بشر وكرم خالد" 17 .

الاكتمال : ويتحقق باشمال النظرية على جميع مفردات الظاهرة اللغوية، ويتجلى ذلك عند اللغويين العرب، برد ما خرج عن القاعدة، أو ما شذ عن القراءة إلى نظام العربية وسندها .

البساطة : وتظهر في تجنب اللغويين العرب التعقيد في القواعد وقد كثرت مقالاتهم في ذلك كقولهم : " ما لا يفتقر إلى تقدير أولى مما يفتقر إلى تقدير " 18 .

الاتساق : يضاف إلى البساطة السعي "إلى إيجاد الاتساق بين القواعد الذي يضيف بدوره اتساقاً في اللغة، من خلال نبذ التناقض كنصهم على أن " الفعل إذا لم يرفع ظاهرين نحو قام عمرو وخالد، كان لا يرفع مضميرين أولى " 19 .

الاقتصاد: ويظهر ذلك في حرص اللغويين العرب على تقليل الأوجه اللغوية التي يحتملها الكلام، والميل إلى مراعاة الظاهرة " فلا معنى لترك الظاهر إذا لم

¹⁷ الخصائص، ابن جني، ت: محمد علي النجار، ج 1، ص 357.

¹⁸ الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، ص 248.

¹⁹ المقتصد في شرح الإيضاح، الجرجاني، ج 1، ص 280.

يمنع منه شيء، ولم يقم دليل على خلافه" ²⁰.

وتجنب التأويل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، يقول أحد اللغويين "إذا وجد السبيل إلى ترك الكلام على وجهه ونظمه، كان أولى من تأويل غير ذلك معه" ²¹.

6- رؤية عبد الملك مرتاض للنظرية اللغوية العربية:

إنَّ أَيْةَ محاولة لإثبات نظرية للعربية أو نفيها تتطلب تأنيا وجهدا عميقين، والسؤال الذي سننطلق منه للحكم على وجود نظرية عربية أسَّسها عبد الملك مرتاض أم عدم وجودها، قائم على التخمين، وهو على النحو الآتي : هل لعبد الملك مرتاض نظرية عربية ؟ وللإجابة عنه لا بدّ من مكاشفة جملة من الأمور التي أوردها في كتابه الذي وسمه بـ " نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها " .

7- عبد الملك مرتاض والعربية :

غيور من الغياري على العربية إنه عبد الملك مرتاض يصفها قائلاً : " وإنها للعربية ربها لغة، ما أبدعها وأحلاها، وأوسعها وأعلاها، وأكملها وأرقاها وأسهلها وأغناها ... العربية حسناء ألفاظها در على نحرها، وكحل في عينها ؛وخضر على خدها، وأساور على معصمها ؛ وبسمة على ثغرها، وزينة على

شفثاها ؛و بهاء على سبرها، وقرطان في أذناها، وسر عبقرى في ناصيتها، وخلخالان على مخلخلاها، وهذا كله على لغة من قال معرضا بحبيبتة واصفا إياها :

إن أباه وأبا أباه

قد بلغ في المجد غايتها

فليس للعربية أن تفاخر بما حبيت به وتباهى، وترتد بين اللغى في المقامات ولا تخشاه، فواها للعربية ثم واهما .

فو حقّ دارة جلجل وما حواها، وعذارى دوار وما جلاها، للعربية سيدة اللغات منزلة وجاها " ²²، لقد وصفها بوصف يليق بمرتبتها في نفوس العرب، وإنه دليل على تمسّكه بها وحبّه لها.

8- نقد مرتاض لعلماء العربية الأوائل :

في أثناء تقديمه لكتابه " نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها " ، قدّم نقدا لبعض علماء العربية القدماء - على الرغم من جلاله قدرهم في اللغة - ، يقول : " على أن الأوائل من علماء الأمة قد تسرعوا في إطلاق بعض المصطلحات التي يقلق بها العلم، وتضطرب بها الممارسة، وتأبأها النظرية، فلا تقوم بها مقاما سليما، ولم يكونوا فيها، إذن - مع

²² نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص5.

²⁰المقتصد في شرح الإيضاح، ج2، ص53.

²¹المسائل المشككة، الفارسي، ص573.

إقرارنا لهم ببذل الجهد والعنت في الاجتهاد
وفضل السبق - موفقين " 23 .

وسبب ذلك في نظره هو أنّ " اللغة
العربية أكبر لغات الكون إطلاقاً،
وأوسعها دلالة في الدلالات، وأدقها معاني
في المعاني، أكثرها أبنية في المباني،
وأغناها تخاريج لدى المعالجة، وأوسعها
تفاريق لدى التفهم ولذلك يتجاسر ويتكابر
من يدعي أنه قادر على معرفتها معرفة
دقيقة، بمن فيهم، من نراهم من أكابر
أئمتها " 24 .

ثم صوّب سهام نقده إلى عالم الأمة
سيبويه، ويرى أن سيبويه لم يكن منظراً
ولا مقعداً للنحو بمعنى لم يؤسس لنظرية
نحوية يقول : لقد " حملّ نحاة الأمة الرجل
حملاً ينوء بأثقاله وحده، في حين لم يكن
هو، في حقيقة أمره، وفيما نهض به من
جهد عظيم إلا متأملاً مؤسساً، لا مقعداً
للعربية ولها منظراً " 25 .

يبدو أن الأستاذ سار على منهج
القائلين " نحن لا ندري ما النظرية اللغوية
التي استند إليها قدماء النحاة في دراستهم

لنظام اللغوي، ولا ما المنهج الدرس اللغوي
العربي القديم " 26 .

إن النظرية في مفهومها الواسع هي
جملة الفروض التي تصف النظام وتضبطه
أو تفسره وتبينه، وعليه " ففروض النحاة
النظرية هي التي وصفت لنا الأنظمة ونحن
لا نتصور الأنظمة بعيداً عن هذه الفروض
أو النظريات " 27 .

وبناء على هذا القول يمكن لنا أن
نعد الفروض النظرية التي أتى بها سيبويه
في كتابه، تعد بمثابة اللبنة الأولى للنظرية
النحوية، ومن واجبتنا أن لا نغفط نصيب
الرجل في التأسيس لها : وأن لا نتسرع في
إطلاق الأحكام للنيل من علمائنا التراثيين.
" فالطابع العام لتراثنا العربي عامة،
ازدحامه بآراء شتى وطوفان من الجزئيات
المتناثرة، من الروايات والأخبار، والمسائل
المفرقة، واستقصاء ذلك كله بدقّة
وإطالة، أما الأسس العامة التي تدور في
إطارها هذه الجزئيات، فتقل بها العناية قلّة
ملحوظة، وهذا الطابع المتميّز لتراثنا
العربي، يمثل صعوبة بالغة للباحث فيه عن
خطوط عامة لصورة متكاملة القسّمات
والسمات " 28 .و عليه يمكن القول إنّ "
النظرية موجودة، ولكنّها تحتاج إلى

²⁶ نظرية النحو العربي القديم، كمال شاهين، ص
57.

²⁷ النظرية اللغوية في التراث، ص 236.

²⁸ الاستشهاد والاحتجاج باللغة، محمد عيد، ص
ب من المقدمة.

²³ نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها
وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص 06.

²⁴ نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها
وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص 06.

²⁵ نظرية اللغة العربية، ص 06.

الكشف عنها، فليس من المعقول أن يقوم هذا البناء الضخم في الدرس اللغوي دون نظرية "29.

فلا يكون بمقدور شخص واحد بلغ من العلم ما بلغ أن يؤسس لنظرة لغوية وحده، فالإرهاصات موجودة تطلب من يتتبعها، ويجلي عنها ذاك الغموض الذي لازمها مدة من الزمن.

9- منهج عبد الملك مرتاض في بيان نظريته:

يعرض عبد الملك مرتاض لبيان منهجه مبتغيا في ذلك محاولة إبراز معالم نظريته التي وسم بها كتابه، وقد مسّت جوانب ثلاثة من اللغة، وهي الجانب النحوي والصوتي، والصرفي، يقول " وإنها لصحائف، إذن، تحدثنا فيهن عن وجوه من العربية، وعن ضروب من أبنيتها، وعن شؤون من نظاهما، وعن لطائف من دلالاتها، كان علماء الأمة الأول قد طرّقوا بابها، ويمموا جنبها، بل مخروا عبابها، ثم أمعنوا التولج في مداخلها ومخارجها، وفي معارفها ومجاهلها، حتى بلغوا في ذلك، الغاية من الاستقرار والإضمار والتخريج والتقدير"30.

فهو يشقّ طريق تنظيره ويسم محاولات في كلّ مرة بـ " النظرية "، فأجمل نظريته

اللغوية في ثلاث نظريات، النظرية النحوية، والنظرية الصرفية، والنظرية الصوتية.

سنشرع في بيان ذلك انطلاقاً من النظرية الصوتية، لأنّ أدنى مستويات اللغة هو المستوى الصوتي.

10- النظرية الصوتية :

إنّ البحث عن نظرية لغوية صوتية تعالج الأصوات اللغوية في المقام الأول، وتختلف عن النظريتين الصرفية والنحوية، راجع إلى التسليم بضرورة أن تكون لعلم الأصوات العربية نظريته الخاصة به.

من هذا المنطلق حاول عبد الملك مرتاض أن يؤسس - كما عبّر - لنظرية صوتية عربيّة، فربط بين الصوت ودلالته، ورأى أنّ العلاقة بينهما ليست اعتباطية، كما يدّعي أنصار البنية في تنظيراتهم على هذا المستوى، يقول " ولكنّا نريد إلى أنّ اللغة العربية خصوصاً حين تطلق اسماً على معنى فهي تراعي فيه علاقته بالطبيعة والمنطق والوضع، ولا نجد أي لفظ اعتباطي"، وذلك فيمل تابعناه من سيرة خصائصها الصوتية، وعلاقتها بالدلالة العميقة، فهي في كثير من أطوارها تراعي العلاقة الصوتية بالعلاقة الدلالية لكيما يتطابق الصوت مع مضمونه "31. فنفيه للاعتباطية بين الصوت وما يدلّ عليه لم يأت هكذا فقط، بل أتى بعد متابعة

³¹ نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص94.

²⁹ العربية وعلم اللغة البنوي، حلمي خليل، ص197.
³⁰ العربية وعلم اللغة البنوي، حلمي خليل، ص06.

مستمرة - كما عبر عبد الملك مرتاض -
لأطوار العربية في عصور مختلفة، ويمكن
القول إنَّ عبد الملك مرتاض اعتمد في هذا
الموضع على آليات وبعض شروط النظرية،
التي يكون مبدؤها الاستقراء، وينتهي
بتقرير النتيجة .

ثمَّ يعتمد مرتاض لإثبات العلاقة
الكائنة بين الصوت والدلالة، بذكر جملة
من الأمثلة، نحو : جرجريس، فتركيبية
هذا الاسم الصوتية تتألف من ثلاثة مقاطع:
جر + جر + إيس، فالعرب اصطنعوا أسماء
غريبة لكائنات غريبة لكيما تتلاءم مع
تمثلهم لها ³² .

11- النظرية الصرفية :

لامس عبد الملك مرتاض في هذا
المستوى، أحد أبواب الصرف العربي، وهو
" باب المصادر "، يرى أنَّ نظام اللغة العربية
في معظم أطواره لا يجتزئ في مصادر
الثلاثي " بمصدر واحد فحسب، ولكنَّه
يعدّها غالباً ابتغاء الزيادة في فروق
معانيها، وليس لمجرد العبث باللغة والرمي
بها في مجاهر الاعتباط، كما ندرك ذلك
من المعاجم العربية التي يكدّس تعداد
المصادر، دون التوقف لدى فروق دلالتها،
لاختلاف أبنيتها " ³³ .

بعد إقراره بوجود فروق دلالية انطلاقاً
من اختلاف بنى المصادر، شرع في ذكر
جملة من المصادر التي تعددت دلالاتها تبعاً
لتنوع بنياتها ³⁴ .

ثمَّ انتقل إلى باب الحروف الزوائد في
أبنية الأفعال (حروف سألتومنيها)، ويبدو
أنَّ الدكتور ينفي القول بزيادة هذه
الحروف في أبنية الأفعال، ويرى أنَّه من
مقولات الدرس الصريح القديم ممَّا ينبغي
النظر فيه، يقول " وأياً ما يكن الشَّأن فإنَّ
هذه الحروف نفسها التي عدّها من
الزوائد، إذا خامرت بناء ما، تكون أصلية
في استعمالات كثيرة أخرى كقولهم : أسَّل
يأسِّل أسالة، إذا كان أسيل الخدّ، مع أنَّ
هذه الحروف الثلاثة التي هي : الهمزة
والسين، واللام، هي معدودة في الزوائد
العشر في أصل هذه النظرية الصرفية
المشكوك في سلامتها، وإذن فإنَّ هذا
المصطلح الذي تعجَّ به كتب النحو ومعاجم
العربية يحتاج إلى شيء من النظر والمراجعة " ³⁵ .

وبعد تحليله لنموذج " غلَّقَ "، وفق ما
رآه، خرج برأى مفاده أنَّ " العربية لم تقم
على نظامي الأصل والفرع، والمزيد من
الأبنية، ولكنَّها قامت على نظام متكافئ،

³⁴ ينظر طائفة المصادر المؤنثة التي أوردها في سياق
التمثيل والإثبات في ص 68 وما بعدها من كتابه :
نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها
وأبنيتها .

³⁵ نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها
وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص 73.

³² ينظر : نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة
لنظامها وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص 94.

³³ نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها
وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص 63.

- قضية تعدد الآراء في المسألة الواحدة، في الدرس النحوي .
- دراسة الشواذ داخل المنظومة النحوية.
- ارتكاز القاعدة على مثال واحد ربما كان مجهول القائل أو مصنوعاً صنعة لفظية واضحة لغرض التكسب.
- و كل هذه المعوقات أشار إليها عبد الملك مرتاض في كتابه ³⁷.

خاتمة :

بعد هذا العرض الموجز للنظرية اللغوية بدا لنا جملة من النتائج نلخصها في ما يلي :

- أشار عبد الملك مرتاض إلى إرهابات يمكن البدء بها لوضع نظرية لغوية .
- يجب أن تشمل النظرية اللغوية جميع جوانب اللغة حتى يكتب لها البقاء، ويمكن من خلالها تفسير ظواهر كثيرة في اللغة، قد استعصى تفسيرها في وقت مضى.
- لم يتم بعد التأصيل لما يمكن أن يعدّ نظرية، وما لا يعدّ، كما لم يوضع إطار عام لنظرية من النظريات التي تمّ التطرق إليها.
- تقديم التراث في شكل نظرية يمرّ عبر دراسة جوانبه الثلاثة : النحوي والصرفي والصوتي، وتبيين علاقة بعضها ببعض.

بحيث نجد مجموعة من الأبنية تتضافر فيما بينها لتكون ما نطلق عليه منظومة التراكيب اللغوية، بحيث لا يعود التصور قائماً على مثلث بحيث يكون ما يسمى الأصلي جاثماً في هرمه، ولكن على تمثّل دائري على أن كل بناء فيه يتخذ موقعه ندّاً لندّ إزاء صنوه، على سبيل مقتضيات الحاجة الدلالية، فيكون كل بناء من الأبنية الفعلية التي تمثل منظومة التركيبية اللغوية أصلاً في نفسه " 36

فبناء فتح له دلالة، وكذلك بناء انفتح له دلالة، فلا يمكن التعبير عن أحدهما بالآخر، فكل واحد منهما أصل في كلامه.

12- النظرية النحوية :

تتألف النظرية النحوية من مجموعة متجانسة من المبادئ والأسس والقواعد التي ينتظمها مفهوم جهة مستوعب لكلام العرب وأحكامه، قادر على إيصال الدلالات الصحيحة للمخاطب وهي تتسم بالاتساق والقدرة على احتواء المادة الكلامية التي اعتمدت عليها هذه القواعد. غير أن جهود النحاة الأوائل - بسبب اتساع المادة اللغوية - واجهتها تحديات تعوق هذه النظرية وهي:

- الاضطراب الذي طال المصطلح النحوي من جهة الدلالة .

³⁷ نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص 98 وما بعدها.

³⁶ نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، ص 74.

قائمة المصادر والمراجع :

1. الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، ت:سيد الجميلي، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1998.
2. الاستشهاد والاحتجاج باللغة، محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1988.
3. الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، ت : محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، الكبرى، القاهرة، ط4، 1961.
4. التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، تحقيق: رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2002.
5. الخصائص، ابن جني، ت:محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، بيروت، 1955.
6. العربية وعلم اللغة البنوي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1995.
7. فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972.
8. فلسفة العلم، صلاح قنصوة، دار قباء، القاهرة، 1998.
9. المسائل المشككة، الفارسي، ت:صلاح الدين عبد الله، مطبعة العاني، بغداد، (دت).
10. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973.
11. معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، محمد فتحي عبد الله، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2003.
12. المقتصد في شرح الإيضاح، الجرجاني، ت: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد ن بغداد، 1982.
13. موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، تعرب: خليل أحمد، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001.
14. نظرية اللغة العربية تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها، عبد الملك مرتاض، دار البصائر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2012.
15. النظرية اللغوية في التراث العربي، محمد عبد العزيز الدايم، دار السلام، القاهرة، ط1، 2006.
16. نظرية النحو العربي القديم، كمال شاهين، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2002.